الطريق بين ممس والقيروان خلال العصر الوسيط المتقدم

نافع الفهري

جامعة قابس

تحدث البكري في الفصل الذي خصصه للطريق بين مدينة فاس والقيروان عن محطات القسم الرابط بين سبيبة ومدينة عقبة والملاحظ أنه قد اقتصر على تعداد المحطات الواقعة إلى الشرق من ممس دون التعرض للمحطات الواقعة إلى الغرب منها في اتجاه سبيبة على أنه قد أشار في فقرة أخرى من المسالك أن هذا القسم الأخير كان يمر عبر قرية وادي الرمال[1].

يمثل البكري مصدرنا الرئيسي حول المحطات الواقعة بين ممس والقيروان حيث أورد ما يلي : « من مدينة سبيبة إلى قرية الجهنيين وهي قرية كبيرة آهلة كثيرة الفنادق والحوانيت ولها أشجار وفواكه بينها وبين القيروان مرحلة وعليها جبل يسمى ممطور لأن معاوية بن حديج نزله فأصابه مطر فقال جبلنا ممطور ومنها إلى منزل يقال له الهرى يجاوره مرصد ومنه إلى كدية الشعير إلى مدينة القيروان وقال محمد بن يوسف من مدينة سبيبة إلى ساقية ممس قرية عامرة آهلة بها مسجد وفندق ثم قرية المشفق كبيرة آهلة بها ماجلان وبئر طيبة عمقها ثلاثون قامة ثم قصر الخير فيه ماء شريب[2] ثم قصر الزرادية ويعرف بالخطارة عامر آهل ثم مدينة القيروان»[3].

يفهم من هذا النص وجود مسلكين يربطان سبيبة بالقيروان يمر الأول عبر الجهنيين الواقعة عند جبل ممطور وبمنزل الهرى الواقع قرب مرصد ثم بكدية الشعير أما المسلك الثاني الذي نقله عن محمد بن يوسف الوراق[ت 363 هـ/ 973 م] فقد كان يمر عبر كل من ممس ثم قرية المشفق أو المستعين[4] ثم قصر الخير ومنه إلى قصر الزرادية المعروف بالخطارة. سوف نركز في هذا العمل على تحديد مواضع عدد من المحطات الواقعة بين ممس والقيروان :

* محاولة لتحديد موقع ممس :

تعود ممس إلى ما قبل الفتح العربي حيث أوردت بعض المصادر القديمة : Campi ،Mamma ،Mammès Mammenses، Mameda وMamida [5] . أشار Procope إلى أن ممس كانت تقع بمكان منبسط تشرف عليه جبال[6] أما Corippus فذكر أنها توجد قرب سهول شاسعة تسمى Campi Mammenses [7].

---

[1] البكري (أبو عبيد الله بن عبد العزيز)، *المسالك والممالك*، تحقيق أدريان فان ليوفن واندريه فيري، بيت الحكمة الدار العربية للكتاب، تونس، 1992، ج 2، ص 710.

[2] أوردت إحدى نسخ المخطوط : قصر الحضرمية فيه ماء شريب.

[3] البكري، *المسالك*، ج 2، ص833 - 834.

[4] اضطربت نسخ المخطوطات في تحديدها لطوبونوميا هذه المحطة.

[5] ظهرت تسمية *ممس* لأول مرة في كتابات المؤلفين البيزنطيين بمناسبة حديثهم عن الحروب التي خاضها البيزنطيون ضد القبائل البربرية خلال القرن السادس ميلادي وكذلك ضمن قائمة التحصينات التي أقامها Justinien ولقد اشتهرت بعدد من الأحداث العسكرية الهامة ففي نهاية سنة 534 ميلادي انتصرت بها الجيوش البيزنطية بقيادة *Solomon* على القبائل البربرية وفي سنة 547 ميلادي وبعد هزيمة البيزنطيين في *Marta* اختارت القبائل البربرية ممس موضعا لإعادة تجميع قواتها من أجل معاودة الهجوم ضد القوات المعادية المتحصنة بمدينة الأربس.
Ben Abbès (M.), « La localisation de Mems : état de la question», in ***Kairouan et sa région : nouvelles données, nouvelles approches***, Kairouan, 2006, **Textes réunis par Ahmed El Bahi,** publications de la Faculté des Lettres et des Sciences Humaines de Kairouran2008, p. 143.

[6] Procope, La guerre contre les Vandales, II, 11, 15, p.149.

[7] Corippe, Johannide, VII, 283-287

اشتهرت ممس بعد الفتح العربي بعدد من الأحداث الهامة التي وقعت بها فلقد ورد ذكرها لأول مرة سنة 69 هـ بمناسبة الحديث عن حملة زهير بن قيس البلوي حيث أن هذا القائد نزل قلشانة متحفزا لقتال البربر

«فبلغ ذلك كسيلة وكان في خلق عظيم من الروم والبربر فدعا كبارهم وأشرافهم وشاورهم وقال لهم أرى أن ننزل بممس لئلا يركبنا من بالقيروان إذا التحم القتال فنهلك فيكون عسكرنا بممس لأن ماءها كثير فإن هزمناهم دخلنا معهم طرابلس وقطعنا آثارهم وإن هزمونا كان الجبل منا قريبا فتحصننا به فأجابوه إلى ذلك فنزل ممس وانتظره زهير أن يخرج إليه من القيروان فلما رآه نزل ممس رحل زهير إليه ونزل بالقيروان وأقام بها ثلاثة أيام حتى استراح وأراح أصحابه خيلهم وزحف إلى كسيلة يوم الاربعاء صباحا فأشرف على عسكر كسيلة في آخر النهار فنزل وبات....»[8].

مرّ ابن أبي الأغلب سنة 296 هـ/ 909 م بممس متوجها إلى القيروان بعد أن مني بهزيمة كبيرة في مدينة الأربس ضد القوّات الشيعية[9].

ذكر ابن عذاري أن أهل القيروان التقوا بأبي عبد الله الشيعي عند ساقية ممس في غرّة رجب من سنة 296 هـ / مارس 909 [10] ونعلم من خلال مصادر أخرى أن الدّاعي قد مرّ في طريقه نحو القيروان بعد انتصاره بمعركة الأربس بكل من دقة وسكتانة ووادي الرمال[11].

ذكرت ساقية ممس مرّة أخرى بمناسبة الحديث عن خروج المنصور الفاطمي لمحاربة أبي يزيد الخارجي في ربيع الأول من سنة 335 هـ / أكتوبر 946 م حيث أورد ابن حماد أن الخليفة الفاطمي : « توجه إلى المغرب لأربع بقين من شهر ربيع الأول سنة 335 هـ فنزل على ساقية ممس وأدركه هناك عسكر قدم عليه من برقة ونادى منادي إسماعيل تلك الليلة أن لا يصحبه الزمنى ولا الجبناء فانصرف جماعة منهم تلك الليلة... ودفع عن ساقية ممس و جعفر بن علي الحاجب على طلائعه فنزل بوادي الرمل ورحل منه إلى سبيبة ففرق فيها الأرزاق ورحل منها إلى برنامجة [هكذا] ومنها إلى ملاق ثم توجه إلى باغاية »[12].

يفهم من النصوص العربية أن ممس مثلت إحدى أهم محطات الطريق الرابطة بين القيروان وسبيبة وكانت تقع قرب المرتفعات التلية و تبعد مسافة يوم غرب القيروان بما أن زهيرا غادر القيروان صباحا فلم يصلها إلا مساء[13] . يعود توقف الجيوش بممس لسببين رئيسيين أولهما وقوعها قرب ممر استراتيجي يربط بين سهل القيروان

---

[8] المالكي(أبو بكر عبد الله بن محمد)، ***رياض النفوس في طبقات علماء افريقية وزهادهم ونساكهم وسير من أخبارهم وفضائلهم و أوصافهم***، تحقيق البشير البكوش، دار الغرب الإسلامي، بيروت 1981 – 1983، ج 1، ص 46-47. انظر حول هذه المعركة: الرقيق(أبو إسحاق إبراهيم بن القاسم القيرواني)، ***تاريخ إفريقية والمغرب***، (ينسب إليه)، حقق القطعة التي عثر عليها عبد الله العلي الزيدان وعز الدين عمر موسى، دار الغرب الإسلامي، بيروت 1980، ص 18؛ ابن عذاري، (عبد الله بن محمد المراكشي)، ***البيان المغرب في أخبار الأندلس و المغرب***، حقق الثلاثة أجزاء الأولى ج.س. كولان وليفي بروفنسال وحقق الجزء الرابع إحسان عباس، الدار العربية للكتاب/ دار الثقافة، بيروت، 1983، ج 1، ص 22.

[9] النعمان (القاضي أبو حنيفة النعمان بن محمد بن منصور)، ***افتتاح الدعوة***، تحقيق : فرحات الدشراوي، الشركة التونسية للتوزيع، تونس، 1975، ص 231.

[10] ابن عذاري، ***البيان***، ج 1، ص 150.

[11] القاضي النعمان، ***افتتاح***، ص 243؛ الدّاعي إدريس (عماد الدين)، ***عيون الأخبار وفنون الآثار***، حقق محمد اليعلاوي الجزء الخاص بالمغرب تحت عنوان " ***تاريخ الخلافة الفاطمية بالمغرب*** "، دار الغرب الإسلامي، بيروت، 1985، ص 137.

[12] ابن حماد (أبي عبد الله محمد بن علي)، ***أخبار ملوك بني عبيد و سيرتهم***، تحقيق إحسان عباس، دار صادر، بيروت، 1960، ص 67. برنامجة تحريف لمراجنة.

[13] المالكي، ***رياض***، ج 1، ص 46-47.

والمرتفعات الواقعة إلى الغرب منه وثانيهما توفر كميات هامة من المياه بها تسمح بسد حاجيات الجيوش الكثيرة العدد وهذا ما أشار إليه القائد البربري صراحة عندما إختار ممس لملاقاة الجيش العربي بقيادة زهير بن قيس البلوي.

ما من شك أن ما كتبه سولينياك حول المنشآت المائية بجهة القيروان ومنطقة السباسب بشكل عام يعتبر من أهم الأعمال في هذا المجال و يبقى مرجعا رئيسيا لا مناص من الرجوع إليه خاصة وأن قسما من هذه المنشآت قد اندثر لكن تحديده لبعض محطات الطريق الرابطة بين القيروان وسبيبة وتأريخه لبعض معالمها يحتاج إلى مراجعة.

ركّز سولينياك بشكل كبير على ما أورده البكري حول محطات هذه الطريق و بما أنه وجد نفسه أمام صعوبة التوفيق بين المعطيات النصية والواقع الميداني لجأ إلى التشكيك في نص المسالك. أبدى سولينياك بعض الملاحظات حول التركيب اللغوي لنص البكري الذي استعمل عند حديثه عن محطات المسلك الأول المار بالجهنيين عبارة "من ... إلى... " أما بالنسبة للمسلك الثاني الذي نسبه لمحمد بن يوسف الوراق فقد استعملها مع المحطة الأولى فقط واكتفى فيما بعد باستعمال عبارة "ثم" وقد رجّح سولينياك أن هذه العبارة قد لا تحيل ضرورة على التتابع الحقيقي للمحطات على الميدان لهذا نجد أن تحديده لها لا يتوافق مع ترتيب البكري[14]. لم يوفّق سولينياك في تحديد محطات المسلك الثاني المار بممس ونظرا لوجود مواضع تحمل نفس التسميات التي أوردها البكري أو تتشابه معها و لكن ليس على الطريق المباشرة بين سبيبة والقيروان فقد طرح هذا الباحث إمكانية أن يكون البكري قد ذكر هذا المسلك مقلوبا وأنه وصف محطاته من القيروان نحو سبيبة وليس العكس وأن هذا الطريق ليس مباشرا.

من المعلوم أن البكري لم يزر إفريقية وهو ينقل عن مصادر مختلفة وهذا ما يطرح تساؤلات كثيرة حول تأريخ معلوماته كما تطرح إمكانية وقوعه في بعض الأخطاء المرتبطة بعدم معرفته للمجال الذي يتحدث عنه ولكن تعمقنا في التعامل مع المعطيات المصدرية والميدانية المتعلقة بهذه الطريق أثبت لنا عدم إمكانية التشكيك فيما أورده لذلك لا نرى موجبا لاعتباره قد أورد محطات هذه الطريق على غير التسلسل الذي كانت تقع عليه ونرى من اللازم التقيّد بما جاء في نص المسالك ومحاولة ربط ذلك بالمعطيات الميدانية.

قام سولينياك بتتبع أغلب الإشارات حول ممس في الفترتين القديمة والوسيطة وقد رجّح أن المنطقة الوحيدة التي تستجيب للمعطيات المتوفرة في المصادر القديمة والعربية هي منطقة جبل شريشيرة وبالتالي وجب البحث عنها غير بعيد عن الحنايا الموجودة هناك و تحديدا عند هنشير الدويميس[15] حيث توجد منشآت مائية هامة تعود للفترتين القديمة والوسيطة وقد أخذت أغلب الأبحاث اللاحقة بهذا التحديد[16]. يطرح تحديد ممس العربية في مستوى هنشير الدويميس بعض الإشكالات ومنها :

---

[14] Solignac (M.), « Recherches sur les installations hydrauliques de Kairouan et les Steppes tunisiennes du VII^e au XI^e Siècle», in ***Annales de l'Institut des Etudes Orientales***, T. X, 1952, p.166.

[15] انظر الخريطة رقم1.

[16] رجّح Ch. Diehl أنها كانت تقع ما بين سبيبة والقيروان وذلك وسط مقاطعة البيزاسين في مستوى الهضاب المجاورة للوادي الأوسط لزرود ما بين جبلي مغيلة و طرزة في حين أثبتها على إحدى الخرائط المضمنة في عمله بالقرب من هنشير الكوكي وتحديدا في مستوى هنشير القنارة. Diehl (Ch.), ***L'Afrique byzantine*** : histoire de la domination byzantine en Afrique (533-709), Paris, 1896, p. 235-236 لا يستجيب هذا التحديد إطلاقا للمعطيات النصية القديمة والعربية إذ لا تتوفر السهول بالمنطقة والموقع بعيد عن الجبال وليس هناك ممر طبيعي ذو أهمية إستراتيجية إلى جانب أن الموقع يبعد حوالي 70 كلم عن القيروان ولا تتوفر به المياه ولا يظهر أنه كان عامرا بعد الفتح العربي حيث لم نعثر به على الخزف الإسلامي. رجّح محمد بن عباس وقوع ممس في مستوى هنشير عين الغراب وسنعود لهذا التحديد لاحقا.

- صعوبة تحديد مواضع المحطات الأخرى التي تليها في اتجاه القيروان و لقد سبق أن ذكرنا أن سولينياك قد اضطر إلى اعتبار البكري قد أورد هذه المحطات على غير التتابع الذي كانت تقع عليه.

- لا تتوفر الشواهد المادية التي تمكننا من الجزم بأن هنشير الدويميس يوافق ممس القرية الكبيرة حيث تكاد تنعدم اللقى الخزفية الراجعة للفترة الوسيطة بهذا الموقع الأثري.

- لا يصعب التفطن إلى أن وصف المستعين كما جاء في نص البكري ينطبق تماما على هنشير الدويميس لكن لا نرى أن ربط سولينياك بين ممس ومحطة المستعين مقنعا[17] لذلك يجب البحث عن ممس إلى الغرب من هنشير الدويميس.

تنطبق الإشارات المتوفرة في المصادر حول ممس بشكل تام على المنطقة الواقعة قرب هنشير الدويميس ونجد إلى الغرب منه بعض المواقع الأثرية العائدة للفترة القديمة وقد تواصل تعمير عدد منها بعد الفتح العربي ونرى أن أكثرها استجابة للمعطيات المتوفرة حول ممس هو هنشير خراطرة الواقع على بعد حوالي 9 كلم جنوب غرب هنشير الدويميس وحوالي 46 كلم غرب القيروان. اندثر هذا الموقع تماما بسبب التوسع الحضري لمدينة حفوز ولقد كان يتميز بامتداده ومن أهم مكوناته التي كانت بارزة دعامتان بلغ ارتفاعهما حوالي 7 أمتار إلى جانب بقايا دعائم أخرى وعددا من الصهاريج المستطيلة الشكل وقد رجحت دراسة قوكلار أن قصر الخراطرة يمثل في الأصل قصرا للمياه كان يزود عبر حنايا[18]. تتميز منطقة حفوز بأهمية مواردها المائية التي أحكم السكان إستغلالها حيث يوجد بها عدد هام من السواقي والصهاريج والأحواض التي ربما تواصل استغلال نسبة هامة منها بعد الفتح العربي إذ أكدت المصادر العربية على الموارد المائية بممس.

تشير اللقى الأثرية إلى إمكانية تعمير هنشير خراطرة خلال العصر الوسيط المتقدم حيث عثرنا بمواضع متفرقة توجد عند أطراف حفوز على قطع قليلة من الخزف الإسلامي يعود بعضها للفترتين الأغلبية والفاطمية الزيرية.

كانت ممس خلال الحقبة القديمة تابعة لمنطقة قمونية المتميزة بكثرة مواردها المائية وبأهمية السكن الريفي[19] وقد حافظت خلال الفترة الوسيطة على شيء من خصائصها فهي مثلت منطقة كثيرة المياه كما تميزت على ما يبدو بأهمية التوطين الريفي إذ كانت أغلب المحطات التي ذكرها البكري على الطريق بين سبيبة والقيروان بهذه المنطقة عبارة عن منشآت مائية مثلت مصدرا هاما ليس فقط للمسافرين وإنما أيضا للسكان الريفيين المجاورين لها.

لقد كانت ممس إحدى أبرز المراكز العربية بهذه المنطقة وهذا ما أكسبها أهمية كبيرة فكانت كبيرة آهلة وتميزت عن بقية المحطات بوجود فندق ومسجد[20] وهي تمتعت بموقع استراتيجي حيث مثلت بوّابة سهل القيروان من الناحية الغربية ونقطة تمفصل هامة على شبكة طرقات المنطقة.

---

[17] Solignac (M.), «Recherches sur les installations hydrauliques… », ***Op. Cit.***, 1952, t.X, p.158-159.

[18] Gauckler (P.), Enquête sur les installations hydrauliques romaines en Tunisie, Imprimerie La Rapide, Tunis, 1897-1901, t. IV, p.272 ; Solignac (M.), «Recherches sur les installations hydrauliques… », ***Op. Cit.***, 1952, t. X, p. 166.

[19] Despois (J.), ***La Tunisie orientale : Sahel et Basse - Steppe***, P.U.F., Paris 1955, p.134 ; M'Charek(A.) , «De Zama à Kairouan : La Tusca et la Gamonia», in ***Frontières et limites géographiques de l'Afrique du nord antique***, Hommage à Pierre Salama, études réunies par Claude Lepelley et Xavier Dupuis, Paris, 1999,p. 164-166.

[20] البكري، ***المسالك***، ج 2، ص833 – 834.

كثيرا ما أوردت المصادر العربية تسمية ممس دون أي نعت يسبقها[21] وبالتالي يصبح من الصعب ضبط الدلالات المجالية لهذا المفهوم ومن الممكن أن استعمال كلمة ممس قد عرف خلال العصر الوسيط المتقدم توسعا مجاليا إذ يمكن الحديث عن مجال أو جهة ممس إذ ذكرت المصادر العربية بنفس المنطقة قرية ممس وجبل ممطور[22] وكذلك الساقية. لقد برزت أهمية ممس منذ الفترة البيزنطية ولعله وجب علينا أن لا نفهم دائما من نصوص تلك الفترة أنها تقصد التجمع السكني في حد ذاته بل ربما كانت تعني الجهة وبالتالي من الوارد أن التحصينات التي أقيمت في الفترة البيزنطية لم تكن في مستوى التجمع السكني وإنما عند موضع استراتيجي قريب منه ضمن الأراضي التابعة له.

تدعم المعطيات الميدانية هذه الإمكانية حيث لم يقع العثور إلى حدّ اليوم على أي موقع أثري يعود للفترتين القديمة والوسيطة يمكن أن يوافق ممس وتوجد به تحصينات وسنرى لاحقا أن الموقع الأثري المسمى عين الغراب الذي يحتوي على حصن بيزنطي الأصل لا يمكن أن يوافق ممس القرية العربية. من الوارد أن هذا الحصن يمثل التحصينات التي بناها البيزنطيون بناحية ممس وليس في مستوى التجمع السكني ولعل ما يدعم ذلك هو أن قرية ممس لم تكن تشتمل حسب النصوص العربية على تحصينات.

*** محاولة لتحديد موقع قصر المشفق / المستعين[23]**

تمثل المستعين حسب محمد بن يوسف الوراق المحطة الثانية على الطريق الرابطة بين سبيبة والقيروان[24] وقد حددها سولينياك عند هنشير الدويميس[25] الواقع على بعد حوالي 37 كلم غرب مدينة القيروان حيث ربط بين الماجلين والبئر المذكورين في نص المسالك وبين الحوضين وبئر لذين الموجودين بهذا الموقع الأثري[26].

يطرح تحديد المستعين عند هنشير الدويميس بعض الإشكالات فلقد وصف البكري هذه المحطة بأنها قرية كبيرة آهلة وهذا ما يفترض وجود بعض الأدلة الأثرية التي تؤكد أن الموقع شهد حضورا بشريا هاما خلال الفترة

---

[21] ذكرت ممس لأول مرة بعد الفتح العربي سنة 69 هـ و لكن لم تحدد النصوص إن تعلق الأمر بموضع أو جهة أو مدينة أو قرية حيث لا نعلم سوى أنها كانت كثيرة المياه [الرقيق، *تاريخ*، ص 18 ؛ ابن عذاري، *البيان*، ج 1، ص 22 ؛ المالكي، *رياض*، ج 1، ص 45.]. ورد ذكر ممس سنة 296 هـ دون أي نعت ألصق بها [النعمان، *افتتاح*، ص 231.]. ذكرت ساقية ممس لأول مرة سنة 296 هـ ثم سنة 335هـ [ابن عذاري، *البيان*، ج 1، ص 150؛ ابن حماد، *أخبار*، ص 67.] كما تحدث البكري عن قرية ساقية ممس و من الوارد أن معلوماته تعود إلى القرن الرابع[البكري، *المسالك*، ج 2، ص 833-834.].

[22] سنتعرض لاحقا إلى العلاقة بين ممس و جبل ممطور.

[23] اضطرب رسم هذه المحطة في نسخ المخطوطات فلقد أثبت دي سلان المستعين في حين أثبت أدريان فان ليوفن وأندري فيري المشفق. البكري، *المسالك*، ج 2، ص 834. من المرجح أن تسمية المستعين ترتبط بالخليفة العباسي الذي كان معاصرا لأبي إبراهيم أحمد المشهور بإنجازاته الكثيرة و إذا ما صحت هذه الفرضية فقد يعني ذلك سعي الأمير الأغلبي لإبراز ولائه و تبعيته للعباسين وهو ما يظهر من خلال مثالين آخرين فنفس هذا الأمير قد سمّى عاصمته الجديدة العباسية تعبيرا عن ولائه للعباسيين كما أن نقيشة تخلد الأشغال التي وقعت في عهده بجامع الزيتونة والتي انتهت سنة 250 هـ تقتصر على تسمية المستعين ولا تورد اسم الأمير الأغلبي. انظر حول هذه النقيشة : عبد الوهاب حسن حسني، *ورقات*، ج 1، ص 116-117 ؛ الدولاتي عبد العزيز، *الزيتونة، عشرة قرون من الفن المعماري التونسي*، وزارة الثقافة، المعهد الوطني للتراث، وكالة إحياء التراث و التنمية الثقافية، تونس، ط 2، 2000، ص 58.

[24] البكري، *المسالك*، ج 2، ص833 - 834.

[25] انظر الخريطة رقم 1.

[26] Solignac (M.), « Recherches sur les installations hydrauliques… », *Op. Cit.*, 1952, t.X, p.159.

الوسيطة المتقدمة. نعثر بهنشير الدويميس على المنشآت المائية التي ذكرت في المسالك ولكننا نفاجأ بشبه غياب للخزف الإسلامي حيث لم يعثر الأستاذ فوزي محفوظ عند زيارته للموقع سوى على قطعة واحدة من الخزف الإسلامي تعود للقرن التاسع[27] ولم نتمكن رغم زيارتنا لهذا الموقع في مناسبتين من العثور على أي قطعة من الخزف الإسلامي. قد نتفهم غياب بنى واضحة تعود لقرية المستعين وهذا راجع بلا شك إلى طبيعة مواد البناء الهشة حيث أنها لا تصمد كثيرا أمام العوامل الطبيعية على عكس المنشآت المائية التي تكون أكثر قدرة على الصمود، لكن يفترض أن يتواجد الخزف الإسلامي بهذا الموقع بكثافة معقولة فهل أن قرية المستعين كانت تقع عند موضع آخر ؟

من الممكن أن المنشآت المائية بهنشير الدويميس قد مثلت المورد المائي الرئيسي لسكان هذه القرية التي ربما وافقت أحد المواقع الأثرية القريبة منه وهنا يجب أن لا نغفل طبيعة التعمير والتــوطين البشري بهذه المنطقة حيث تميزت منذ الفترة القديمة بالسكن الريفي وبامتــداد الضيعات وبالتــالي ليس من الضــروري أن توجد جميع المنشآت والمعالم التابعة لهذه القرى في نفس الموضع هذا فضلا على إمكانية أن تكون المساكن متباعدة عن بعضها البعض.

لقد بيّن سولينياك أن الساقية التي كانت تنطق من هنشير الدويميس كانت خلال الفترة القديمة تزود عددا من المراكز القريبة الواقعة في مستوى المنطقة المنحصرة بين جبل شريشيرة من جهة الجنوب وكدية البهلي وهنشير الدويميس من جهة ثانية[28] ولقد مكنتنا زياراتنا الميدانية من التفطن إلى كون هنشير الثماد الموجود هناك قد كان عامرا خلال الفترة الوسيطة مما يجعل إمكانية موافقته لقرية المستعين أمرا واردا إذ من الممكن أن الماجلين والبئر التي تحدث عنها البكري لم تكن توجد عند قرية المستعين ذاتها وإنما غير بعيد عنها ضمن الأراضي التابعة لها وتحديدا في مستوى هنشير الدويميس.

يمثل هنشير الثماد[29] موقعا مندرسا بشكل كبير تبلغ مساحته حوالي 5 هك ومن أهم الآثار البارزة بقايا معلم مستطيل ربما كان حماما وأحواض مستطيلة صغيرة ومهدمة كما تظهر بعض القبور المنبوشة. يكثر بالموقع الخزف العادي والسجلي وشقف الجرار وكذلك الخزف الإسلامي حيث ترجع بعض القطع التي أمكن تأريخها إلى القرنين 10 و11 م.

*** محاولة لتحديد قصر الزرادية / الخطارة**

الخطارة مرادفة للفقارة وهي عبارة عن نفق أرضي محفور ومتصل بالسطح بواسطة آبار التهوية وهي تسمح بتصريف المياه من طبقة عميقة[30].

حاول سولينياك البحث عن هذا القصر و بما أنه لم يحترم التسلسل الذي أورد عليه البكري محطات هذه الطريق فإنه لم يعتبر قصر الزرادية المحطة الأخيرة قبل الوصول للقيروان ورأى أنه يسهل تحديدها بما أن الخريطة الطوبوغرافية للقيروان1/200.000 تشير إلى هنشير خراطرة قرب حفوز. إن هذا التحديد جعله يطابق بين قرية

---

[27] Mahfoudh (F.), ***Architecture et urbanisme en Ifriquia médiévale (proposition pour une nouvelle approche)***, Centre de Publication Universitaire, Faculté des Lettres de la Manuba, 2003, p.117.

[28] Solignac (M.), « Recherches sur les installations hydrauliques… », ***Op. Cit.***, 1952, t.X, p.126. يرجح سولينياك أن العرب قد قاموا فيما بعد خلال الفترتين الأغلبية و الفاطمية بتمديد هذه الساقية.

[29] الأطلس الأثري التونسي، 1/50.000، خريطة القيروان، الموقع عدد 43. انظر الخريطة رقم 1.

[30] جورج بيار، ***معجم المصطلحات الجغرافية***، ترجمة حميد الطفيلي، المؤسسة الجامعية للدراسات والنشر والتوزيع، بيروت، ط 1، 1994، ص 613.

الجهنيين الواردة على المسلك الأول و قصر الخطارة أو الزرادية الذي ورد مع الوراق حيث رجّح أن قصر الخطارة كان يمثل مجموعة المنشآت المائية الأكثر أهمية في قرية الجهنيين[31] .

لا يمكننا أن نقبل هذا التحديد حيث بيّنّا أنه يجب التقيّد بما جاء في نص البكري الذي يصف الطرقات الرابطة بين سبيبة و القيروان من الغرب إلى الشرق لا العكس لهذا يتوجب البحث عن هذا القصر إلى الشرق من هنشير الدويميس الموافق للمنشآت المائية التابعة للمستعين. نرى من جهتنا أن هذا القصر الذي هو عبارة عن معلم مائي وصفه البكري بالعامر كان يقع في مستوى الشبيكة الحالية التي نشأت حول بئر تحمل نفس التسمية إذ بالتعمق في دراسة أصول هذه الطوبونوميا نرى أن لها دلالات تقترب من الخطارة حيث أورد ابن منظور في مادة شبك : «الشَّبَكَةُ الآبار المُتقاربة وقيل هي الرَّكايا الظاهرة... وقيل... الشَّبَكة آبار متقاربة قريبة الماء يفضي بعضها إلى بعض... والشُّبَيْكة موضعان والشُّبَيْكَةُ ماء أو موضع بطريق الحجاز»[32]. تمكننا الطوبونوميا من ربط محطة الزرادية أو الخطارة بالشبيكة الحالية وبالتالي فإن المعلم المذكور في نص البكري ليس سوى الحوض المائي المسمى اليوم القصر[33] والموجود قرب الشبيكة وهو عبارة عن حوض كبير مستطيل الشكل يبلغ طول أحد أضلاعه حوالي 52 متر وكان مزودا بدعامات داخلية.

*** قصر الخير**

أطلقت تسمية القصر هنا على منشأة مائية كان بها « ماء شريّب »[34]. لقد وجد هذا المعلم حسب البكري بين المستعين وقصر الخطارة لذلك رجح سولينياك أنه يتوجب البحث عنه في منطقة لا يتجاوز طولها 8 أو 9 كلم ما بين هنشير الخراطرة الواقع قرب حفوز وهنشير الدويميس ولمّا لم يهتد لموضعه رأى أنه لا يمكن الوثوق بصحة معطيات الوراق فيما يخص تتابع هذه المحطات و طرح دون تدليل على ذلك إمكانية موافقة هذه المحطة لموقع القصر الموجود حذو الشبيكة[35].

لقد أشرنا سابقا أن هذا الموقع الأثري الأخير ليس سوى قصر الزرادية أو الخطارة وتبعا لذلك يتعيّن البحث عن قصر الخير في مستوى المنطقة الواقعة ما بين هنشير الدويميس والشبيكة ولعله يوافق الحوض الذي أشار إليه سولينياك بالقرب من نقطة التقاء وادي شريشيرة بوادي الجرويلة والذي كانت تصب فيه 3 قنوات تتجه إحداها إلى عيون شريشيرة[36]. لا نملك أدلة تؤكد صحة ما ذهبنا إليه ولا يرتكز هذا التحديد سوى على كون هذا المعلم كان يمثل أهم الأحواض الواقعة على الطريق الرابطة بين هنشير الدويميس وموقع القصر بجهة الشبيكة.

---

[31] Solignac (M.), « Recherches sur les installations hydrauliques… », *Op. Cit.*, 1952, t.X, p.167.

[32] ابن منظور، (محمد بن مكرم بن علي الأنصاري)، ***لسان العرب***، (18 جزء)، دار صادر، الطبعة الأولى، بيروت 2000، ج 8، ص 16.

[33] الأطلس الأثري التونسي، 1/50.000، خريطة القيروان، إلى الجنوب الشرقي من الموقع رقم 64.

[34] البكري، ***مسالك***، ج 2، ص 834. اضطرب رسم الجزء الثاني من التسمية حيث أوردت إحدى نسخ المخطوط قصر الحضرمية [البكري، ***مسالك***، ج 2، ص834 – 835، الفقرة 1390، الهامش 9.] و إذا ما صحّت هذه التسمية الأخيرة فقد تجوز مقاربتها مع قبيلة حضرموت اليمانية.

[35] Solignac (M.), « Recherches sur les installations hydrauliques… », *Op. Cit.*, 1952, t. X, p.168.

[36] المرجع السابق، ص 128.

*** محاولة لتحديد موقع قرية الجهنيين**

ذكر البكري هذه القرية على المسلك الأول الرابط بين سبيبة والقيروان وهي تنسب إلى قبيلة جهينة إحدى فروع قضاعة[37] وبالتالي فإن الجهنيين هي منطقة استقرار عناصر من قبيلة جهينة التي شاركت في حملات فتح إفريقية حيث نعلم أنه كانت لها مساهمة هامة في الحملة العربية الأولى إذ خرج منها حوالي 600 مقاتل[38].

لقد كانت الجهنيين قرية كبيرة آهلة كثيرة الفنادق والحوانيت ولها أشجار وفواكه بينها وبين القيروان مرحلة[39]. اقترح J. Despois المطابقة بين الجهنيين و حفوز الحالية[40] وهذا التحديد مقبول إذ أن حفوز تبعد حوالي 46 كلم عن القيروان وهو ما يتوافق مع تقدير البكري للمسافة الفاصلة بين هذه المحطة وعاصمة إفريقية[41].

لقد ارتبطت هذه القرية بأحد العناصر الطوبوغرافية الهامة بالمنطقة حيث أنها توجد عند جبل ممطور[42] ذائع الصيت خلال الفترة الوسيطة المتقدمة وتمكننا هذه الإشارة الأخيرة من تحديد موقع قرية الجهنيين ومن ضبط العلاقة بين المسلكين الرابطين بين سبيبة والقيروان. وردت أول إشارة لجبل ممطور سنة 45 هـ / حيث تروي المصادر أن معاوية بن حديج نزل به فأصابه مطر فقال جبلنا ممطور[43]. اختفت تسمية ممطور من السجل الطوبونومي لمرتفعات المنطقة على أنه إذا ما أخذنا بما ورد في بعض المصادر الحفصية والحديثة[44] فهو ليس سوى جبل وسلات الواقع حوالي 40 كلم شمال غرب القيروان.

تعود تسمية وسلات للفترة القديمة إذ توافق Mons Usalitanum فكيف يمكن أن نفسر هذه التحولات الطوبونومية ؟ لقد كان جبل ممطور خلال العصر الوسيط المتقدم سيئ الذكر حيث ارتبط في المصادر بالمروق عن الدين والكفر و ذلك نظرا لكونه مثل منطقة نفوذ للخوارج ولقد وضعت بعض الأحاديث التي تذم هذا الجبل وساكنيه متوعدة إياهم بالجحيم إذ اعتبرت هذه الأحاديث الموضوعة أن المنستير يمثل بابا من أبواب الجنة في حين يمثل جبل ممطور بابا من أبواب جهنم[45]. قد تطرح إمكانية أن تكون المطابقة بين جبل ممطور وجبل وسلات في المصادر

---

[37] كحالة (عمر رضا)، ***معجم قبائل العرب القديمة والحديثة***، مؤسسة الرسالة، بيروت، 1985، ج 1، ص 216.

[38] النويري (شهاب الدين أحمد بن عبد الوهاب)، ***نهاية الأرب في فنون الأدب***، ج 24: تحقيق : د حسين نقار وعبد العزيز الأهواني، الهيئة العامة المصرية للكتاب، القاهرة، 1992، ج 24، ص 4.

[39] البكري، ***المسالك***، ج 2، ص 833.

[40] Despois (J.), ***La Tunisie orientale***..., *Op. Cit.*, p.162

انظر الخريطة رقم 1.

[41] وافق سولينياك على تحديد قرية الجهنيين في مستوى حفوز. Solignac (M.), «Recherches sur les installations hydrauliques... », ***Op. Cit***., 1952, p.162.

[42] البكري، ***المسالك***، ج 2، ص 833.

[43] المالكي، ***رياض***، ج 1، ص 29؛ ابن عذاري، ***البيان***، ج 1، ص 7، 15؛ ابن ناجي (أبو الفضل أبو القاسم بن عيسى التنوخي)، ***معالم الإيمان في معرفة أهل القيروان***، تحقيق: ج 1: إبراهيم شبوح، ج 2: محمد الأحمدي أبو النور ومحمد ماضور، ج 3: محمد ماضور، ج 4: محمد المجدوب وعبد العزيز المجدوب، المكتبة العتيقة، تونس، 1993، ج 1، ص 43.

[44] التجاني (أبو محمد عبد الله بن محمد بن أحمد)، ***رحلة التجاني***، تحقيق: حسن حسني عبد الوهاب، الدار العربية للكتاب، تونس 1981، ص 32 ؛ ابن الشماع (أبو عبد الله محمد بن أحمد)، ***الأدلة البيّنة النورانية في مفاخر الدولة الحفصية***، تحقيق الطاهر بن محمد المعموري، الدار العربية للكتاب، تونس، 1984، ص 34. نجد في الكتاب الباشي قصيدة منسوبة لأبي عبد الله محمد بن أحمد الورغي [ت سنة 1190 هـ/ 1776] يسمي فيها جبل وسلات ممطور. بن عبد العزيز(حمودة بن محمد)، ***الكتاب الباشي***، تحقيق محمد ماضور، الدار التونسية للنشر، ج 1، ص 113.

[45] انظر: ابن عذاري، ***البيان***، ج 1، ص 7؛ التيجاني، ***رحلة***، ص 32 ؛ ابن الشماع، ***الأدلة البينة النورانية***، ص 34؛ السراج (محمد بن محمد الأندلسي)، ***الحلل السندسية في الأخبار التونسية***، تحقيق : محمد الحبيب الهيلة، دار الغرب الإسلامي، بيروت، 1984. ج 1، ص 231.

المتأخرة مجرد اجتهاد من مؤلفيها وهذا ما قد يعني موافقته لأحد الجبال الأخرى القريبة من حفوز، ربما جبل طرزة أو جبل شريشيرة[46].

نستبعد ذلك إذ بما أن جبل ممطور عرف بأنه مثّل مأوى للخوارج المتمردين ضد سلطة القيروان فلا نعتقد أنهم قد استقروا بسلسلة شريشيرة أو جبل طرزة حيث أنهما محدودا الامتداد ولا يصعب الوصول إليهما ومحاصرتهما وذلك على عكس جبل وسلات المنيع مما أهّله لاحتضان المتمردين على السلطة المركزية خلال الفترتين الوسيطة والحديثة كما كان ملجأ للمقاومين في الفترة المعاصرة وبالتالي من الوارد جدا أن تسمية ممطور قد أطلقت على جبل وسلات وربما تحديدا على مرتفعاته الجنوبية المطلة على جهة حفوز حيث تطلق إلى اليوم على القمم المكونة لوسلات تسميات مختلفة. لقد احتفظ السجل الطوبونومي للمنطقة على تسمية وسلات في حين اختفت تسمية ممطور وربما كان ذلك في علاقة بالأبعاد السلبية التي أعطيت لهذه التسمية الأخيرة.

رجح بعض الباحثين ومنهم سولينياك[47] أن ممطور ليست سوى تعريبا لـــ Mampsarus Oros الوارد ذكره مع الجغرافي الإغريقي Ptolémée ولكنهم لم يستغلوا هذا المعطى الطوبونومي الهام لموضعة بعض المحطات. نوافق محمد بن عباس في الربط بين Mampsarus Oros وجبل ممطور وممس أيضا[48] حيث أن التقارب اللفظي بينهم واضح وهذا يجعلنا نتفطن إلى علاقة خفيّة بين تسميتين مختلفتين أوردهما البكري على المسلكين الرابطين بين سبيبة والقيروان إذ بما أن قرية الجهنيين كانت تقع عند جبل ممطور فهذا ما قد يعني بأن هذه القرية التي نزلتها قبيلة جهينة ليست سوى ممس.

إن الربط بين الجهنيين و ممس يدل على أن البكري قد نقل معلوماته حول المسلك الرابط بين سبيبة والقيروان عبر الجهنيين عن مصدر آخر غير مسالك الوراق إذ نستبعد أن يستعمل هذا الأخير تسميتين مختلفتين بالنسبة لنفس الموضع دون أن يشير إلى ذلك. لقد نقل البكري معلوماته عن مصدرين مختلفين وبما أنه كان يكتب عن منطقة لا يعرفها لم يكن بمقدوره أن يعرف أن قرية الجهنيين ليست سوى ممس.

إن المطابقة بين ممس والجهنيين تعني أن المسلكين الرابطين بين سبيبة والقيروان كانا يشتركان في محطة واحدة على الأقل وهذا يجعلنا نصحح التصور الذي وضعه سولينياك لمسار هذه الطرقات دون أن نضطر إلى تجاوز نص المسالك والممالك :

يتبع المسافر من سبيبة نحو مدينة عقبة طريقا تمر عبر ممس/ قرية الجهنيين الموافقة لهنشير خراطرة ومنها تتفرع[49] فيتجه المسلك الشمالي نحو هنشير الدويميس حيث توجد المنشآت المائية التابعة لقرية المستعين ثم يتوغل في الوادي الذي يشق جبال شريشيرة محاذيا للساقية الممتدة هناك قبل أن يصل إلى سهل القيروان وهو بذلك يقترب من مسار الطريق الحالية الرابطة بين القيروان وحفوز.

---

[46] رجح سولينياك أن Mampsarus Oros يوافق مرتفعات شريشيرة. Solignac (M.), «Recherches sur les installations hydrauliques… », *Op. Cit.*, 1952, t.X, p.154.

[47] Fournel (H.), ***Les berbères. Etude sur la conquête de l'Afrique par les arabes***, Paris, 1881, t.II, p.86 ; Solignac (M.), «Recherches sur les installations hydrauliques… », *Op. Cit.*, 1952, t.X, p.154.

[48] لكنه لم يستغل هذه المعلومة للربط بين ممس والجهنيين. Ben Abbès (M.), « La localisation de Mems …», *Op. Cit.*, p. 154.

[49] انظر الخريطة رقم2.

لا يشق المسلك الجنوبي سلسلة جبال شريشيرة بل يطوقها من ناحية الجنوب فيعبر السهل الممتد شرق جبل طرزة والموافق على الأرجح لـــ Campi Mammenses لينفذ عبر الممر الطبيعي الهام الواقع ما بين جبل عين الغراب وجبل الهوارب إلى سهل القيروان. يلتقي المسلكان عند نقطة مجهولة من السهل ليتجها نحو القيروان.

* محاولة لتحديد موقع المرصد القريب من منزل الهرى

ذكـــر البكري بعد قرية الجهنيين مرصدا لم يذكر اسمه ولم يقدم إشارات تفيدنا في تحديد موضعه باستثناء أنه كان يوجـــد بالقرب من منزل الهرى المجهول الموضع أيضا. نرى أن هذا المرصد ليس سوى الحصن الهام الواقع بعين الغراب وذلك نظرا لوقوعه على المسلك الجنوبي المذكور آنفا ولإشرافه على ممر طبيعي هام يفصـــل بين جبل عين الـــغراب وجبل الهوراب ونظرا لأهمية اللقى الخزفية الراجعة إلى الفترة الوسيطة حوله.

يوجد هنشير عين الغراب[50] عند الضفة اليسرى لوادي مرق الليل وهو عبارة عن حقل أثري ممتد حيث كانت تظهر به العديد من أسس المنازل وبعض الحجارة المنجورة[51]. يتميز الموقع بأهمية موارده المائية حيث تتدفق مياه العين التي أعطت اسمها للموقع وهي عين كثيرة المياه العذبة لا تزال تمثل المورد الرئيسي لسكان التجمع السكني القريب وتصب مياهها حاليا في سد الهوارب. لاحظنا بقايا حوض تهدم بشكل تام بفعل النحت الجانبي لأحد الأودية المنحدرة من المرتفعات المجاورة.

تنتشر فوق ربوة صغيرة تقع عند أطراف جبل عين الغراب، بقايا حصن يصل طوله إلى حوالي 47 م وعرضه إلى حوالي 28 م ويبلغ متوسط سمك جدرانه قرابة 1.30 م في حين يتراوح ارتفاعها الحالي ما بين 2 و4 أمتار وقد بنيت بحجارة مختلفة الأحجام بعضها منجور ربما أخذ من الموقع القديم المنتشر أسفل الربوة. يظهر أنه قد وقع ترميم هذا الحصن في فترات مختلفة و هو ما يبرز من خلال تنوع تقنيات ومواد البناء المستعملة في تشييده[52]. تدعم حيطان هذا المعلم 5 أبراج دائرية ونصف دائرية. يغطي الركام والتراب هذا الحصن من الداخل بحيث لا يمكن التعرف على كامل تقسيماته.

تؤكد اللقى الخزفية تعمير الموقع خلال العصر الوسيط المتقدم وتعود أغلب القطع التي أمكن تأريخها إلى الفترتين الأغلبية والفاطمية – الزيرية.

لا نوافق محمد بن عباس الذي رأى أن هذا الموضع يوافق ممس[53] لأن ذلك يجعلنا غير قادرين على تحديد بقية المحطات الواقعة على المسلكين الرابطين بين سبيبة والقيروان ولكن نشاطره الرأي في كون السهل الممتد غربا في اتجاه جبل طرزة يمثل بلا شك Campi Mammenses. نرى أن هذا الحصن يوافق التحصينات التي أقامها البيزنطيون بناحية ممس وليس بممس ذاتها وهذا ما يفسر كون جميع المصادر العربية لم تذكر وجود تحصينات بقرية ممس التي ارتبطت بعدد هام من الأحداث العسكرية وذلك في علاقة بموقعها الاستراتيجي على شبكة الطرقات وبوفرة مياهها. تدعم المعطيات الميدانية ما ذهبنا إليه حيث عثرنا حول الحصن الذي يحتل موقعا مشرفا على كمية هامة من الخزف الإسلامي الذي لا نجد له أثرا في مستوى الموقع الأثري المنتشر أسفل الربوة حيث لا يوجد سوى

[50] انظر الخريطة رقم1.

[51] Jacques (Le Lieutenant), « Notes sur d'anciens ouvrages militaires des environs d'Hadjeb-El-Aioun », in ***B.C.T.H.***, 1905, p.107.

[52] المرجع السابق، ص 110.

[53] Ben Abbès (M.), « La localisation de Mems…», ***Op. Cit.*** ,p. 149 et suiv.

الخزف العادي والسجلي الإفريقي مما يعني أن هذا التعمير العربي قد اقتصر على الحصن بأعلى الربوة وأن التجمع السكني القديم لم يكن عامرا في الفترة الوسيطة وبالتالي لا يمكن أن يوافق ممس القرية الكبيرة. يمثل هذا الحصن التحصينات التي أقامها البيزنطيون ضمن الأراضي التابعة لممس والتي ربما شملت كامل السهل الممتد ما بين مرتفعات وسلات شمالا وطرزة غربا وشريشيرة وجبل عين الغراب شرقا ولقد حافظ هذا الحصن الواقع بناحية ممس خلال العصر الوسيط المتقدم على أهميته الاستراتيجية على طرقات المنطقة فأصبح مرصدا لمراقبة أحد أهم الممرات الطبيعية المؤدية إلى سهل القيروان.

بناء على تحديدنا لموقع المرصد من الممكن أن قرية الهرى توافق أحد المواقع القريبة من هنشير عين الغراب أما بالنسبة لكدية الشعير فقد كانت توجد بلا شك شرقا في مستوى الأطراف الغربية لسهل القيروان وقد اختفت تسميتها من السجل الطوبونومي للمنطقة بشكل يجعل تحديد موضعها أمرا صعبا.

تبين لنا هذه الدراسة أهمية ضرورة اعتماد الأبحاث الخاصة بالجغرافية التاريخية لإفريقية خلال العصر الوسيط المتقدم على المعطيات الميدانية حيث يتوجب عدم الاقتصار على تحليل ونقد المصادر ومقارنتها ببعضها بل أصبح من الضروري مقاربة المعطيات النصية بالحقائق الميدانية وهو ما يمكن من فك ألغاز النصوص وفهمها. تتأكد لنا مرة أخرى أهمية كتاب المسالك والممالك للبكري إذ كثيرا ما انفرد بإيراده لمعطيات هامة ومتميزة تخص مختلف المواضيع الجغرافية التاريخية لإفريقية.

الخريطة رقم 1. قسم من الخريطة الطوبوغرافية للقيروان 1/250.000



الخريطة رقم 2. الطريق بين ممس والقيروان

